خيانة في رسائل

بقلم الأديب نجيب محفوظ

« هذه أول أزمة تصيب حبنا ! نعم طالما آلمني الفراق الهين ، وأجهدني الشوق إلى اللقاء ، وعذبني الدلال ؛ أما الوداع ، أما الرحيل إلى قنا ، فهذا أمر جديد ، يدفع إلى نفسي شعورا بالحزن لا عهد لها به ، فهلا عدلت عن هذا السفر . . . ؟ »

« لو كان الأمر إليّ ما رغبت نفسي أدنى رغبة في السفر ، فما أحفل بقضاء الشتاء في أعالي الصعيد بعض احتفالي بالقرب منك كيما أواصل هذا اللقاء السعيد ؛ ولكن ما حيلتي وهذا ما يريده أبي ويفعله منذ أحيل الى المعاش . ولقد اعتاد أن يمضي شهراً أو شهرين من الشتاء في قنا عند عمي الدكتور .. »

« يستطيع عقلي أن يتصور المعجزات ، ولكن لا أستطيع أن أتصور ما عسى أن تكون عليه حياتي هذين الشهرين ، فهذا الحب غدا حياة لشعوري ، وهذا اللقاء أمسى ألفة لنفسي ؛ أجد فيها راحة بعد تعب ، وعزاء عن شوق دائم ، فما عسى أن أصنع . . . بل ما يكون زادي وسلوتي . . . ؟ »

فوضعت يدا خمرية ناعمة على كتفه ، وداعبت بأطراف أناملها خده ، وهمست في أذنه :

« هذا شعوري وهذا حزني ، ولولا كراهيتي للعزاء لنصحت لك بالتعزي والتلهي ، فليس أمامنا سوى الصبر الجميل حتى ينطوي دهر الفراق ويتصل حبل اللقاء . . . ومع هذا فما أسعدك وما أبأسني . . ! »

« كيف . . . ؟ »

« لن أسعد بقراءة كلمة لك طوال مدة غيابي ، لأنك لا تستطيع أن تكتب إليّ ، أما أنت فتستطيع أن تطلع على همسات روحي كلما مكنتني الفرص من اختلاس الكتابة اليك . . . . فأينا أسعد حظا . . . ؟ »

« من تؤاتيه فرص التعبير فيخفف عن مراجل عاطفته »

وهنا ظللت وجهه سحابة كدر ، وسألها بعد تردد :

« هل لك أبناء عم ؟ . . . »

فابتسمت ابتسامة دلت على أنها سرت للقلق الذي بعث هذا السؤال وأجابته :

« نعم لي . . . . ولكنهم لم يجاوزوا عهد الطفولة ، ولو كان الأمر كما تتوهم ما أوجب أدنى خوف أيها الرعديد الغيور . . . والآن هات فمك أودعك . . . وهيا نقول معاً هذه الكلمة المروعة التي تفزع لها القلوب :

« أستودعك الله . . . »

من الغد يصبح له في قنا حبيبان عزيزان : حبيبة القلب عائدة ، وصديق الصبا وزميل عهد الدراسة الأستاذ أحمد مرزوق المدرس بمدرسة قنا ، ولكنه بينما يتصل بصديقه بالكتابة فهو محروم بحكم الظروف من تمام هذا الاتصال الروحي بحبيبته ، لأن حبهما ما يزال سرا خفيا لما يدر بأمره الأهل . . .

وانقضت أربعة أيام على سفر عائدة ، ثم وصله

منها كتاب جاء فيه :

« حبيبي حسني !

أعجب لهذه الوحشة كيف تجثم على صدرى وأنت معى . . . نعم أنت معى لم تفارقنى لحظة سواء فى ضجيج النهار أو فى سكون الليل ؛ معى وأنا أرسل الطرف من نافذة القطار أشاهد الحقول الممتدة وأشجار النخيل المبعثرة ؛ معى وأنا بين أهل عمى أتلقى الأحاديث وأرد عليها ، وأضاحك هذا وأسمع لذاك ؛ معى فى كل مكان وكل حين ، فلا عجب لنفسى بعد ذلك أن هزها الحنين اليك أو استشعرت وحشة وضيقا فى البعد عنك ، أو ألهبها الشوق عذاباً وجوى

وأرجو ألا تتهمنى بالتكاسل عن الكتابة إليك فبيت عمى عامر بالأطفال وهم لا يتركوننى لحظة أخلو الى نفسى ؛ وقد انبعثت كلمات هذا الكتاب من شعورى وامتلأ بها عقلى وتمثلت فى حواسى وحفظتها عن ظهر قلب قبل أن تؤاتينى الفرص فأسطرها لك خلسة على ضوء القمر المتسلل من نافذة حجرتى والعيون قد أغمضها عنى المنام . . . فاعذرنى إن تأخرت عنك رسائلى وارجع إن شئت إلى قلبك فاعتقادى أنه يملى عليك عن لسانى ما أحب أن أقوله لك دائماً

أما عن قنا فجوها دافئ جميل ، وخلا ذلك فنحن فى منفى ، ولولا ما يربحه أبى فيها من صحة وعافية ما تركته يسكن اليها لحظة من الزمان »

فأخذ من الكتاب كل ما استطاع أن يمنحه من العزاء والسلوة والسعادة

وكان صديقه مرزوق لا ينقطع عن مراسلته وإن خلت كتابته من الطرافة والجدة ، فهى التحيات المحفوظة وبث الأشواق والتلهف على إدبار العام الدراسى وإقبال العطلة الصيفية ، إلا أنه أضاف الى هذه المحفوظات فى آخر كتاب له مانصه :

« طالما قلت لك إنى أعيش فى قنا كما عاش أبونا آدم قبل أن يخلق الله منه أمنا حواء ، لا يقع بصرى على وجه امرأة قط ، وإن كنت أرى أحياناً بعض الأصدقاء يشيرون إلى كتلة من الثياب السوداء الملفوفة تسير كعمود من الدخان الكثيف وأسمعهم يقولون : انظر الى هذه المرأة . . . ولكن وقع بالأمس ما يعد حدثاً تاريخياً فى حياة قنا ، إذ حضر الدكتور سامى حسنى مفتش الصحة الى البستان العمومى وفى صحبته غادة جميلة سافرة الوجه ، فهز البلد وزلزل كيانها . إنه رجل جسور لا يعبأ بآراء المتزمتين ، وتجده دائماً على استعداد للرد على تطفل المتطفلين بما يجعله مثلاً وعبرة ، ولم يلبث أن شاع الخبر وملأ الأسماع فهرع الشبان الموظفون من مدرسين ومهندسين وكتبة الى البستان وهم يسوون أربطة الرقبة ويحكمون أوضاع الطربوش على رؤوسهم ، فلو رأيت البستان حين ذاك لحسبته حديقة غناء فى مصر الجديدة أو قصر النيل

إنها شابة جميلة تحمل فى طياتها عطر القاهرة العبق ، فليهنأ قفر قنا بهذا القطر العذب . . . »

تخفق قلبه لدى مطالعة الكتاب ولم يداخله أدنى شك فى معرفة صاحبة الشخصية الجميلة التى أثارت لوعة الشباب فى قنا

يا له من كلام يحمل فرحاً وألماً والألم فيه أكثر ! أيجوز أن تسعد قنا ومن فيها بحبيبته ويبقى هو فى القاهرة تسيل نفسه حسرات عليها . .

وهم أن يكتب لصديقه كتاباً يعلنه فيه بأن الفتاة التى هز مقدمها قنا هى حبيبته اليوم ، ثم خطيبته وزوجه غدا ، ولكنه جفل من هذا

الاعلان ووجد رغبة خفية أن يكتمه إياه وأن يطلب منه أن يوافيه بأخبارها التى تستحق الرواية والحديث

لقد تردد لحظة وطرح على نفسه هذا السؤال : ألا يعد هذا تجسساً منه على حبيبته ؟

وهل يجوز هذا فى شرع المحبين ؟ . . أو ليس الأفضل أن يربأ بنفسه عن أن يضع صاحبته موضع الاتهام والظنة ؟ . .

ولكن عاطفة الندم هذه لم تستطع أن تقهر عواطف قلبه الجياشة السوداء فطردها من نفسه وكتب الى صديقه بما أمات عليه شكوكه من بادئ الأمر

وبعد حين وصله كتاب ثان من صديقه جاء فيه عن عائدة ما يلى :

« تغير كل شىء فى قنا وكل شىء فى حياتى . لم تعد قنا قبراً موحشاً فاغراً فاه مكشراً عن أنيابه ؛ ولم تعد حياتى سأماً ثقيلا متصلا . كيف لا يكون هذا وأنا مطمئن إلى أنى سأحظى أصيل كل يوم برؤية ذلك الوجه السافر المبتسم الذى يحيى موات النفوس ، ويبعث مصفر الأمل . . . ما أجملها ، وما أعذبها . . .

علمت الآن أنها ابنة أخى مفتش الصحة ، أو هـذا ما علمته قنا عامة وعلمه شبابها خاصة . إن جميع العيون تلتهمها التهام الجوع ، فلعل هذه الضجة تثير الغيرة فى نفوس الآباء الموظفين ، فتشجعهم على الاستهتار بتقاليد الصعيد وأهليه وإبراز بناتهم للعيان ، ومهمـا يكن من الأمر فنحن الرابحون

لا تخش على أخيك من قهر ، فهو بطل صنديد وشخصية لا يشق لها غبار ، وإن عينىّ لتنفذان من بين العيون جميعاً وتجذبان عينيها إلىّ ، فصبراً ولتعلمن بعد حين فى أى مخبأ من مخابئ القدر كانت تنتظره هذه المفاجآت ! . . »

ما هذا الذى يقول مرزوق من أن عينيـه تجذبان إليه عينيها ؟ . إن لعينى مرزوق أن تجذبا كيف تشاءان . أما عينا صاحبته فما بالها تنجذبان وتستجيبان ؟ . . . هلا يكون ذلك مجرد نظر برىء فسره صديقه على ما يهوى غروره ويحب ؟ . . .

إنه لا يشك أبداً فى إخلاص عائدة ، ولكن ينبغى ألا ينسى أن لصاحبه عينين جبانتين يحس الناظر إليهما سخونة فى أعصابه ولذعة فى قلبه ، وهو — إلى ذلك — مدرس محترم من حملة الدبلومات العالية ، ومن ذوى المستقبل السعيد . أما هو فلم يزد على أن يكون موظفاً صغيراً ، كل مؤهلاته شهادة البكالوريا ، ومستقبله مظلم محدود ، أفلا يكون لجميع هذه الفوارق أثر فى الحب ؟ . .

إنه يشعر بحزن عميق يخيم على نفسه فيجماها من الكآبة كنفس هرم متشائم ، ويحس بسم الغيرة ينطلق من قلبه ويلوث دمه . . . أواه . . . إن أحلامه وآماله تترجح على كف رجيم . . .

وفى ذلك الوقت أتاه كتاب من عائدة ، فانكب عليه بلهفة ، وتلاه مرة بعد أخرى ، ولم يكن يخرج فى معنـاه عن رسالتها الأولى ، فتزعزعت شكوكه ، وعاودته الثقة ، وذاق بعض الطمأنينة والشفاء ، وحمّل غرور صديقه إثم ما جنى عليه كتابه من الشك والعـذاب ، ولـكنه تسلم رسالة من صديقه بعد ذلك بأسبوع ، جاء فيها :

« كن على يقين من أن العاطفة النامية لم تعد قاصرة على جانب واحد ، فعينا الفتاة — واسمها عائدة — تفتحان الحاضرين من الشبان وتستقران علىّ أنا . إنى أطالع فى وجهها عند حضورى سيما

الشوق والتطلع تحاول أن تخفيها بعدم اكتراث مفتعل ، وأقرأ في عينيها استجابات خفيفة لرسائلي الصامتة الملتهبة ، وأستشف أحياناً على فمها ابتسامات خفيفة ، ولعلها تخاطب عمها أو أحد أبنائه الصغار بصوت مسموع وهي تعنيني .. لا تدهش لأقوالي هذه فاني أطاردها في إصرار ، وأتتبعها في عناء ، وأخاطبها بصوت مكتوم تنمّ عنه شفتاي المتحركتان ، وأبعث إليها باشارات الشكوى والرجاء ، وقد اقتربت مني مرة وهي تلاعب طفلاً من أبناء عمها وسمعتها تقول له أو لي إن شئت : « دائماً في أعقابي ، فماذا تصنع لو رجعت الى مصر ؟ ... » . فقلت لها بهمس مسموع : « لعلك لا تعودين ... » ، إنها كلمة ذات مغزى خاص إذا قالها شاب أعزب موظف مثلي . وقد كان لها الأثر الجميل . والآن أفتني فانك خبير طبيب عالم بأحوالي ، هل أقدم أم حسبي ما ذقت من لذة بريئة وأولي ظهري وداً لن ينتهي بالتئام .. ؟ إن ثمرة الحب ناضجة دانية تنتظر من يقطفها فما رأيك ؟ ... »

يا للظلام ... يا للألم الساخر ... عبثاً يحاول دفع هذه الآيات بالشك والتكذيب ، فمائدة بلا ريب هي التي لا تستطيع مغالبة الشوق بالتستر وعدم الاكتراث المفتعل ، وهي التي تحادث الغير وتمنى المجدود من الرجال ، وهي التي تجيب عيناها الاجابات الخفية ... وهي تسكرها سيرة الزواج

فيا للظلام ويا للخيبة القاتلة ... والأدهى أنه يريد منه أن يكون مستشاراً في مأساة قلبه ... ولعله يرجو أن يشير عما يقطع خيط العنكبوت الذي عسك بكفة أحلامه وسعادته .. فيا للسخرية ! من المستطاع أن يحاول انقاذ سعادته فيمان صديقه بالحقيقة السافرة ويضع آماله بين يدي شهامته وما يعهد فيه من الاخلاص والمروءة ، ولكن كبرياءه تأبى عليه أن يكون في حبه من المسترحمين السائلين ، وهو يندفع برغبة جنونية نحو جحيم العذاب كأنما غدا يستطيب النار الموقدة ؛ وأبى إلا أن يعرض حبه لأقسى امتحان . فاما إلى نعيم الطمأنينة ، وإما إلى أهوال العذاب ، وعليه فقد تمالك وكتب إلى صديقه :

« إذا كانت ثمرة الحب ناضجة فاقطفها بلا تردد ، فان حكمة الدنيا لتذوب حسرة على ثمرة حب ناضجة يزهد فيها الانسان ، أقدم ولا تبال بالنتائج البعيدة ، وتمتع بالحب في منفى قنا ولا تحمل نفسك هموم التفكير في الغد ، ولا تغفل عن تزويدي بكل جديد فاني أصبحت من تتبع حبك على حب شديد »

وانتظر رد صاحبه بصبر نافد وجزع لجوج ، حتى وافاه منه كتاب جاء فيه عن عائدة ما يلي :

« بوركت من حكيم سديد الرأي ! لقد اتبعت نصحك أيها الأخ ، وضربت لها موعداً همساً ، ووافيت إليه في صباح اليوم الثاني وأنا حائر بين الشك واليقين ، بين اليأس والأمل ؛ ولكن لشد ما كان فرحي عند ما رأيتها قادمة ! والحقيقة أنها كانت مترددة مذعورة على رغم خلو المكان الذي يوحي بالطمأنينة في خفية عن أعين الرقباء ، وبلغ بها الذعر أنها مرت بي غير ملتفتة إلى يدي الممتدة كأنها جاءت لغير موعدي ، فتبعتها وحييتها وطمأنتها حتى قالت لي مضطربة :

« لا أدري كيف جئت .. كيف أطعتك .. إني مضطربة ... » فهدأت خاطرها وسكنت اضطرابها ولاطفتها بما أوتيت من بيان ومران وحماس حتى أفرخ روعها واطمأنت

لقد تحدثنا طويلاً ، بل طويلاً جداً ، ولو أردت أن أسطر لك ما دار بيننا ما انتهيت وما وسعتني الأسطر ؛ فحسبك أن تعلم أنها فتاة جميلة رشيقة حلوة المعشر ، مهذبة الطباع ، وإن كانت تغلب عليها حدة الاحساس وتوقد العاطفة والذهاب مع الخيال .

وقد حامت بمهارة حول موضوع الزواج فجاريتها بخفة ولباقة لا تهويان بها إلى قرار اليأس ولا تعلوان بها إلى عقد الميثاق ، وعند الافتراق تناولت منها قبلة شهية خلت لحلاوة جدتها أنها أول قبلة تنالها شفتاى ... »

انتهى الأمر ، وتبددت الأحلام ، وخابت الآمال وقضت على قلبه الذى انتهى طويلاً بأفراح الحب أن يتجرع آلام اليأس والخيبة

وانقطعت عنه رسائلها ولكنه كان على علم متصل بأحوالها من رسائل صديقه التى جاءته تترى

وقد كتب اليه فى إحداها :

« أنا — باختصار — سعيد جداً ، فحياتى مليئة بالبهجة والمسرة ، وعائدة خير عزاء عن الوحدة والوحشة فى هذا المنفى السحيق ، وإنى كلما أذكر أنى سأحرم هذه المتعة بعد شهر يشيب شعرى من الهول ، وأضمها إلى صدرى بشغف ، وألتهم منها قبلات ملتهبة كأنى أختزن منها ما أعود إليه عند الفراق . أما هى فتعتقد أنها لن تعود إلى القاهرة أو أنها تعود لكى ترجع إلىّ إلى الأبد ، فمن يدريها أن لى خطيبة تنتظرنى فى القاهرة من سنوات طويلة ...

وبهذه المناسبة أقول لك إن عائدة من اللاتى وهبهن الله دلالاً وفتنة ، ولكنها على قدر غير هين من الاستهتار والنزق ؛ أما خطيبتى فشابة حيية هادئة الطبع وعلى خلق عظيم ، وإنى أدخرها للزواج وأنا سعيد »

وكتب إليه فى رسالة أخرى :

« معذرة أيها الصديق عن تأخير غير مقصود ؟ والحق ماذا أقول لك ؟.. فالحياة الجميلة هى هى ... لقاء فأحاديث ، فمداعبات فتقبيل وعناق ، فوداع واتقاء . إنها غدت مجنونة بى ، وكلما مرت ساعة اشتد بها الجزع وتكاد تنطق جوارحها : أن اذهب إلى والدى وخاطبه فى حبنا لأكون لك طول العمر

إنها أمنية طبيعية ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه .. »

ثم كتب إليه بعد حين :

« قومت الألفة تلعثم الحياء وصيرت التلميح تصريحاً وأمست عائدة تلح على أن أكلم أباها لتتخذ علاقتنا الصبغة الشرعية المقدسة ، وكانت حياتى تكون السعادة نفسها لولا هذه المنغصات

والحق أنى أجد بين يديها سعادة صافية جعلتنى شديد العطف عليها ، وبعثت فى الضمير ألماً مبرحاً . وإنه ليسوءنى ما أبيت لها من نية الغدر والهجر لأنى فى الحقيقة لم أر فيها أكثر من ملهاة ممتعة أسكن إليها فى هذا المنفى القصى . وما أشبه غرامى هذا بغرام الرحالة الجواب تتمدد وعوده تمدد ما يجوبه من البلدان . وما يثير النفس يا صديقى أنى — أول أمس على أثر عودتى من لقائها — جلست إلى مكتبى شارداً أقلب بعض الكتب فما راعنى إلا ديوان شوقى تنشق صفحاته عن صورة حفظتها فيه وكدت أنساها ، هى صورة خطيبتى بوجهها الصبيح الجميل وقد سطر على ظهرها بخط جميل « تذكار الوفاء » فكأنه سوط عذاب ألهبنى ناراً ، ألا فليغفر الله ما تقدم من ذنبى وما تأخر أيتها الحبيبة ! والحق لقد اضطرب فؤادى وألقيت على الصورة نظرة ذعر سريعة ثم أخفيتها عن عينى أو أخفيت عينى عنها لأنه وقع فى نفسى أنها تعلم بخيبتى

وأنها تصوب نحوى نظرة لا تعيش أمامها الخيانة »

وكتب إليه فى رسالة أخرى يقول :

« لست فتى عصريا كما كنت أعتقد ، ولو أنى كنت كذلك لما هالنى الغدر ولا كبرت على نفسى الخيانة ولسهل على اصطناع الوداد للفتيات اصطناع تحيات الصباح والمساء ، ولهذا تجدنى معذبا موزع القلب فلا أنا بالراضى على نفسى لأنى نكثت ميثاق خطيبتى ولا أنا بالسعيد بما ألقى من حب عائدة التى رمانى تفانيها فى هاوية من الندم

ولا يخفى عليك أن الملل عرف طريقه إلى نفسى وأنى بت منه فى سقام ؛ وقد كان ذلك مقدوراً ولكن ما الذى عجل به ؟.. لعله ذكرى خطيبتى ، أو لعله أنى أقبلت على عائدة إقبال منهوم جائع فامتصصت حلاوتها فى رشفة ، أو ربما كان ذلك لأن جمالها طلاء لا يخفى من ورائه شخصية ذات بهاء وجلال »

ثم كتب :

« أمسى اللقاء غير ذى متعة ، لأنى من ناحية بت أعانى من السأم وارهاق الضمير ، ومن ناحية أخرى فالفتاة تصر على مخاطبتى فى شأن الزواج ولا تكاد تصبر عن هذا الموضوع فرمت بى فى الحرج والحيرة ، وينتهى موعد اللقاء ونحن لم نفرغ من الجدل العقيم والتضييق السقيم والاعتذار والتهرب المفضوحين »

وأخيراً كتب إليه يقول :

« لأول مرة أخاف الميعاد ، وإنى لأعذر نفسى وأغبطها ، وأرجو أن تفهم الفتاة أن هذا منى اعلان بالقطيعة ، ولم يكن من هذا بد بعد أن بلغنا فى علاقتنا موضعاً ينبغى أن يتقرر فيه المصير ، فاما إلى يمين وإما إلى شمال ، وما كان ينبغى لى أن أختار من جديد ، وما أحببت ذلك قط فان خطيبتى تنتظر أوبتى بفارغ الصبر وهى أكرم على نفسى من هذه الفتاة التافهة الثرثارة التى لم يعزها الله إلا بظاهر الجمال المبتذل لا يلبث أن يتبخر أثره فى الهواء . ومهما يكن من الأمر فان ينقضى أسبوع حتى تكون الآنسة عائدة فى طريقها إلى حيث ألقت »

* * *

قرأ جميع هذه الرسائل — رسائل صديقه وقاتله — بامعان شديد

وكانت تتسلط على نفسه فى ذلك الوقت عاطفتان : عاطفة حزن عميق وشعور حاد بالخيبة والغيرة وانهيار الأمل جعلته لا يذوق لذة فى اليقظة ولا راحة فى السهاد ، وعاطفة تشف وانتقام أن تنتهى بها الخيانة إلى مثل ما انتهت به الحال من خيبة أمل وانهيار صرح سعادة . . .

ولم يفرط فى واحدة من هذه الرسائل التى سجلت تاريخ أكبر هزة عنيفة امتحن بها شبابه فجمعها فى رزمة وحفظها فى حق عاجى جميل ووضعها فى مكان أمين وانتظر ...

جاءته رسالة مقتضبة من عائدة نفسها تعلنه بقدومها وترجو أن يذهب للقائها فى موعدها المعهود عند العصر ...

وفكر فى أمره طويلاً ، تفكير من تسيطر عليه عاطفة مسمومة ونفس جريحة حتى انتهى من أمره إلى تدبير ، فذهب إلى الموعد فى الساعة المعهودة ، ولم ينتظر هذه المرة لأنه وجدها فى انتظاره ، واستقبلته بيدين مفتوحتين وابتسامة مشرقة ، فضمها بين ذراعيه ولثم شفتيها وهو يبتسم ابتسامة كلفته غاليا من الجهد وضبط النفس

وجلسا إلى نفسيهما كما كانا يفعلان فى الأيام الخوالى السعيدة ، وسمعها تقول بفرح فائض :

« وأخيراً »

فردد قولها : « وأخيراً » ثم نظر إليها بعينين مبتهجتين تخفيان دهشة وقال لنفسه : يا عجبا ! ما أقدركن أيتها النساء على إخفاء مشاعركن وتكلف ما ليس بكن !

وانطلقت هي تقول :

« أستطيع أن أخبرك كم ثانية غبتها عني طوال هذه المدة الثقيلة لا أرجعها الله »

« الذي يبدو لي أن استغراقك في حساب الزمن شغلك عن الكتابة إلي »

« أتسخر مني ... آه لو تعلم كم كانت تكلفني الرسالة أكتبها إليك ! .. كنت أتسلل إلى مكان قصي بالبيت كي أخفي نفسي عن أعين أبناء عمي ... فيجدون في أثري ويبددون عزلتي ويفزعون أخيلتي النسجمة وعواطفي الحارة ، فاذا انتهيت منها احترت كيف أسلمها إلى صندوق البريد »

« ألم يكن الخروج هيناً عليك ... »

« أحياناً مع عمي »

« لم لم تخرجي في الصباح وعمك في عمله والجو خال ؟.. »

« لو فعلت لكان أمراً مثيراً ... والشبان هناك جائعون أراذل عديمو الشرف ... »

« يا سلام ... ! »

« نعم يا عزيزي ... »

فهز كتفيه وقال وهو ينم فيها النظر :

« أرى عذرهم بينا ... فمن يطالع هذا الوجه الجميل ولا يقهر على الحب قلبه ؟ ولكن ماذا صنعوا معك حتى استحقوا عندك هذا الحكم القاسي ؟ »

فصمتت لحظة ثم قالت :

« إنها صغائر مألوفة لا ينى عنها الشبان ... ولكنها ليست بذي بال ... فلندع هذا الآن .. فاعتقادي أنه لدينا ما يلذ لنا حديثه أكثر من هذا ... »

« طبعاً .. طبعاً .. ولكن وا أسفاه قد قدر على أن أحرم هذه اللذة الليلة .. لأن أمي مريضة وينبغي أن أكون الى جانبها سريعاً فلنؤجل هذا الحديث الممتع الى المرة القادمة

فنظرت إليه قلقة وسألت :

« مالك ؟ لست كعهدي بك ! تقول إن أمك مريضة ؟ لا بأس عليها .. أمضطر أنت الى الذهاب اليها حالاً ؟ »

إنه يحس برغبة شديدة تدفعه الى الانفجار لينفس عن صدره بعض غليانه المكتوم وحقده المدفون ، ويود لو يجبه هذا الرياء بما يمزق قناعه ويهتك ستره ويفضح شناعته ، ولو فعل ما جنى على الرحمة والعدالة ، فمن حقه أن يصب جام غضبه ويثأر لآلام قلبه ويمحق الخيانة والمكر السيء

ولكنه كان قد انتهى من أمره إلى مرفأ لا يريم عنه ، وكان بطبعه هادئا رزينا كتوماً يبذ فيه العقل الهوى وتتغلب لديه الحكمة على الثورة ، فغالب دواعي الغضب في نفسه حتى أسكنها وقال بهدوء غريب :

« إني تعب بهموم مكدود الذهن ، ولولا شدة توقي لرؤيتك ، ما هان على أن أغادر أمي ، وهي طريحة الفراش ... فلنفرغ من هذا اللقاء ولو على مضض ... والآن اسمحي لي أن أقدم إليك هدية جميلة : هذا الحق العاجي ... ورجائي ألا تمسيه إلا حين خلوتك إلى نفسك في غرفتك لتحظى بالمفاجأة السعيدة في غيبة عن أعين الرقباء ... وإلى اللقاء القريب أيتها الحبيبة ...

نجيب محفوظ

ليسانسيه آداب — القاهرة